بنت الفجر

مثال الحب البنوي والشجاعة وشرف النفس

١ : التيه

بعد ان دافع العرب دفاع الابطال عن غرناطة عروس المدن الاندلسية ، غلبتهم جيوش فرديناند وايزابيل بكثرتها الساحقة واخرجتهم منها (سنة ١٤٩٢)

وكان من جملة المطرودين من دورهم واملاكهم والمطروحين في مجاهل القفار ، سيدة شريفة معروفة ببنت الفجر ، ابنة الامير الراشد ، وقد قتل زوجها واقاربها في ساحة الوغى وغاب ابوها في المعمعة ، ولم يبق لها سوى طفل رضيع ووالدة عجوز . . . .

كانت بنت الفجر مناهزة الخمسة والعشرين ربيعاً وقد اجزل عليها مبدعها ، هبات الجمال والشجاعة والكمال

وكانت تهيم في البراري وقد اضلت السبيل ، وهي ماسكة بيسراها ذارع والدتها ، تساعدها على السير ؛ وضامة بيمناها طفلها الى صدرها وقد احرقت الحمى جسمه ، وعلت وجهه امارات الذبول . . .

وكلما اعياهما المسير وجلستا للاستراحة ، حاولت انعاش قلب والدتها باقوال عذبة تبعث على الصبر والأمل بنيل الفرج

ولم ينتصف اليوم الثاني من توغلهما في ذلك التيه حتى نفد الزاد القليل الذي كان معهما وبتيتا تتضوران جوعاً؟فزاد ذلك في آلامهما ومخاوفهما . . . وراحت ابنة الفجر تبحث عن مأوى او مزرعة او مسلك يؤدي الى محل مأهول فلم تجد ؛ فعادت الى والدتها واذا هي ملقاة على الارض لا حراك بها ، فايقظتها وقدمت الى فمها قليلا من الحشيش التقطته في طريقها ، فلم تغو العجوز على اكله .

وهناك اتت بنت الفجر عملا غريباً الجأها اليه الحب والشفقة ، وذلك انها عمدت الى والدتها ترضعها من لبنها لعلها تسد به رمقها وتعيد اليها نسمة من الحياة التي نالتها يوماً منها . . .

لكن الامر كان مقضياً ولم تلبث العجوز ان لفظت الروح ؛ وبعد قليل مات الطفل كذلك

ولم يشهد تينك الميتتين الاليمتين سوى البدر الزاهر في كبد السماء ؛ وبنت الفجر الجاثمة على الغبراء . . . .

فأسدل البدر من بياض نوره كفناً ناصعاً ، اندرجت فيه الجثتان ؛ وسكبت عليهما بنت الفجر من حقتي عينيها طيباً غزيراً ؛ وظلت تقبلهما وترثيهما حتى رهنت قواها ، فسقطت فوقهما وقد اغمي عليها

٢ : بين ايدي الصياد

ومر بهم حينئذ فتى صياد ، فوقف مبهوتاً لدى رويته جثتاً هامدة ، طروحة

على الارض . ثم تقدم وحرك بنت الفجر فرآها تتنفس فأسرع الى جدول قريب وأتاها بماء رشه على وجهها وسقاها منه قطرات، ففتحت عينيها ، فقال لها بمزيد اللطف والرقة : « من السيدة ؟ » فلم تقدر على الاجابة . ثم جس العجوز والطفل فتحقق انهما مائتان. فحمل بنت الفجر الى كوخ له خفيٍ عن العيون وليس فيه سوى والده وهو شيخ هرم . فصاح به ابوه : « من اين لك هذه الفتاة ذات الاساور والخواتم والثياب الفاخرة ؟ » . . . فوضعها الفتى على الحضيض ، واسندها الى وسادة ، وغاب وقد ذهل عن مجاوبة والده . . . فقبض الشيخ على يدها وصار يفركها ويقول : « من انت ايتها الشريفة ، وما الذي دهاك ؟ » فعاودها شيء من حسها فقالت : « انا بنت الفجر ، وابي الراشد » . فحملق اليها الشيخ وهتف صارخاً : « ابنة الراشد عدونا الاكبر !! » فقالت : « كان عدوكم في الحروب واما الآن وقد اخذتم البلاد وعملتم بنا ما عملتم فماذ بقي لكم ؟ . . . ها ان والدتي وولدي قد سقطا ميتين ، وانا لاحقة بهما لامحالة . . . اقتلوني ان شئتم ؛ ولكن لاتهينوني ! »

وعندها ، عاد الفتى وبيده اناء فيه حليب ؛ فقدمه الى فمها ، فباعدت عنه راسها وقالت : « لا اشرب في بيت يعتبرني اهله من اعدائهم » . فظن الفتى انها تحسب الحليب سماً ، فشرب امامها

منه وقال : « انه حليب صاف طري ، ينعشك ياسيدتي ؛ فاشربي منه هنيئاً مريئاً » . وتأثر الشيخ من جوابها وانائها فقال : « اكرعي الحليب يا ابنتي ، فأنت هنا في أمان ؛ وانا كوالدك ، وهذا ولدي كأخيك » . فهدئ روعها وشربت من الحليب حاجتها . وشعرت بشيء من الراحة فقالت للفتى : « انت ، يا من ارسلك الله الي معيناً ، وقد جعلك الآن والدك بمثابة اخي ، أترضى ان اكلفك تعباً آخر ، واطلب منك احساناً عظيماً انت قادر على ادائه ، ولك من الله الثواب ؟ » قال : « انا عبدك ، ياسيدتي ، واطوع لك من بنانك . . . تكلمي فانا سميع مطيع » . فتنفست الصعداء وقالت : « تراني لا اطيق الحركة . . . فاذهب انت عوضي وادفن والدتي وولدي حتى لايمسيا طعاماً للوحوش والطير بعد ان كانا ضحية الجوع والألم . . » فأسرع الشاب لقضاء طلبها . فأمالت راسها الى الوسادة وغلبها النعاس فنامت وطارت روحها الى عالم الاحلام ، حيث لاقت الوالدة العزيزة ، والابن الحبيب ، والزوج البطل ، والوالد الشريف

اما الشيخ فساورته الافكار والاوهام ، وكان من الجهة الواحدة يخشى ان يبلغ القوم خبر قبوله ابنة العدو في كوخه فيعاملونه هو وابنه معاملة الخونة والجواسيس ؛ ومن الجهة الاخرى كان يستسعد حظه اذ أتيح لابنه انقاذ سيدة شريفة ، والاحسان اليها ، رغماً عن

قلة ذات يده . ولم يغب عن باله انه سينال، يوماً ،لقاء جميله، مكافأة عظيمة،يجود بها اهلها ... وبينا هو في هذه الاماني فتحت بنت الفجر عينيها وقد عاودتهما انوارهما اللطيفة، وبرق لمعان الحياة بين اسارير محياها الوضاح ؛ فسرحت انظارها في الكوخ ثم التفتت الى الشيخ وقالت :« أراكم ايها الشيخ الفاضل ، لاتملكون شروى نقير ... » فنزعت زوجاً من اساورها وقدمته اليه قائلة : « اسألك ان تبيعه وتصلح به شانك » . فتظاهر الشيخ بالتمنع والاباء فألحت عليه بالطلب ، وأقسمت انها لا تاكل ولا تشرب عنده شيئاً ما لم ياخذ السوار . فأطاعها واخذه « غير آسف »

ثم عاد الفتى واخبرها بدفنه والدتها وولدها في قبر واحد وبتزيينه بالاعشاب والازهار . فشكرت له لطفه وقالت : « لن يضيع الله اجر المحسنين » ...

٣ً : زيارة القبر

وفي الغداة ، طلبت بنت الفجر الى الفتى ان يرافقها الى القبر ، فمانعها الشيخ مبيناً لها انها لاتقوى على المشي والتعب . فقالت : « بلى اني قادرة على ذلك . ولا يحل لي تاخير هذه الزيارة » . وخرجت من الكوخ فتبعها الفتى . وبعد مسير ساعة ، جلست لتستريح ووقف هو الى جانبها . فنزعت من اصبعها خاتماً وقدمته

اليه قائلة : « أهديه اليك ، اقراراً بفضلك ، فأسألك قبوله » . فبهت الفتى وظن ان التقدمة حبية . فاخذ الخاتم وانحنى اليها وقال : « أتسمح لي سيدتي بتقبيل هذه اليد الكريمة اللطيفة ؟ » فشعرت بنت الفجر بما دار في خلده فقالت : « ان والدك قد جعلك اخي ، فلا يحسن بي ان ارضى بتقبيلك يدي . . . اما احسانك فهو عظيم ولن انساه ماحييت » . ثم نهضت وسارت حتى بلغت القبر ، فأكبت عليه تقبله وتسقيه بدموعها وتنشد الموشحات الرقيقة بصوت تهتز لرخامته القلوب ، وتتكهرب من تموجات انغامه الالباب . وكان الفتى جاثياً حائر الفؤاد طائر العقل ، تارةً يبكي ، وطوراً يصغي بلذة لاتوصف . . . فانقضت الساعة بعد الساعة وهو مخطوف الروح ولم ينتبه الا لضجة قوية ، فالتفت واذا بثلة من الجنود الفرسان متجهة اليه . فاستولى عليه الرعب لسبب انه من الافراد الفارين من الجيش . فعول على الهرب ولكن الخوف على بنت الفجر اوقفه وأبطل فيه كل الحركة . فاقترب اليه قائد الثلة فعرفه وصاح به : « وانت ايضاً بغيتنا يا جبان ! » وأمر ان يوثق ويجر وراء الخيل . فانتبهت بنت الفجر للضجيج واذا الامر قد تفاقم فبادرت الى الفرسان قائلة:« ناشدتكم الله ان لاتمسوه بأذى ، فانه أريحي كريم ! » قال القائد : « بل نذل لئيم ! انه فر من

ساحة الشرف وخان الوطن ... ومن انت ايتها السيدة الجميلة، وماذا تعملين هنا ؟ » فحاول الفتى ان يجاوب عنها مموهاً امرها لعلها تنجو من شرهم فقال: « انها من اهلنا، وقد جاءت تزور قبر الشهداء. » فقاطعته بنت الفجر قائلة: « الصدق اشرف وآمن ! اني ابنة الراشد، وقد فقدت هنا والدتي وولدي ... وكنت موشكة على الهلاك فأنقذني هذا الفتى وعالجني حتى شفيت . . . فهل لكم ان تنبئوني بما جرى لوالدي ان كنتم تعلمون ؟ » فامتلأ قلب القائد من هيبتها وعجب لصدقها وصراحتها وشجاعتها فقال: « الراشد اسيرنا، وهو معتقل في احدى قلاع غرناطة » . فهتفت متضرعة: « احملوني، بالله، اليه، واسجنوني معه؛ والا فاقتلوني هنا واقبروني بين والدتي وولدي ! »

(الباقي للآتي)

— سأل احد سفرآء الفرس، زوجة ليونيداس ملك اسبارطة: « ما الداعي الى تكريم النساء الى هذا الحد، في اسبارطة؟ » أجابت: « لانهن يقدرن ان يعملن رجالاً للوطن » . ومن هذا الكلام نشأ المثل القائل: « النساء يعملن الرجال »

رنات الاوتار السحرية

ماذا تريدان لصغيرتكما

لشفيق معلوف (عن الشعب)

تخيل الشاعر ان آلهة الجمال والغنى والشعر والفضيلة سألن الوالدين عما يريدان لصغيرتهما، فأحسنا باختيار الفضيلة لها خير نصيب

« ليلى »

ما تريدان للصغيرة ؟ هل
قداً رشيقاً ذا رقة ودلال
او جفوناً اذا استرق بها الغنج
استرقت بالغنج قلب الرجال ؟

☆
☆☆

هل تريدانها اميرة قصرٍ
فوق عرشٍ في عزةٍ وجلال
ينثر التبر تحت اقدامها نثراً
وتمشي فوق الدمى واللآلى ؟

☆
☆☆

ما تريدانها ؟ أربة شعرٍ
تتغنى بالحب والآمال ؟
تلك قيثارة ؟ دعوها تلامسها
فتمسي الاهة للخيال